تصادم عبقريتين

(الصراع بين أبي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراسانى)

يقف مدونو التاريخ الإسلامى وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذى ثار بين أبي مسلم الخراسانى وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل أبي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه ، واستقصاء أسبابه ، وسرد مختلف الروايات التى تدور حوله ، وتتصل به . وعذرهم فى ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التى ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها أشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذى ثبت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك ، وكان واحد عصره فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، ونفاذ النظر ، وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ ، ونتاج غريب لاحتكاك الإسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر — فى بعض الروايات — من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى أنوشروان ، وإذا صح ذلك فهو من أصل فارسى شريف تلتهب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الإسلام ، وتلمح فى تصرفاته سطوة الارستقراطية وقسوتها ودهاؤها وشمائل الملك وعزة السلطان . وقد استطاع بصادق حماسته ، وبارع قيادته ، وفائق تدبيراته ، أن يغير مجرى التاريخ

الإسلامى ويضرب ملك بنى مروان الضربة القاضية ، ويرفع على أنقاضه بيت بنى العباس . وقد تمكن من إنجاز ذلك كله قبل أن تبلغ سنه الخامسة والثلاثين .

وقد كان فى بنى العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع إلى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الإنسانية . وقد أحسنوا تدبير الدعوة واختيار الأرض العذراء الصالحة لاستنبات بذورها ، وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز فى الحياة العملية التى تميز بها العلويون ، وجرت عليهم الإخفاق فى كل محاولة ، وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسى المفجعة تستوجب الأسف ، وتستدر الدموع ، وجعلت الرجال العمليين يقعدون عن نصرتهم ، لأنهم لم يجدوا عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب كما قال أحد هؤلاء الرجال العمليين وهو الأحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بنى العباس القائد الحربى الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة . وقد أصابوه فى أبى مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لأفلتت منهم الفرصة ، ولما أمكنهم أن يبتزوا ملك الأمويين وعلى رأسهم خليفة من أقدر رجالهم مثل مروان ابن محمد الذى لم تغض الهزيمة من مزاياه الحربية ، ولم يستسغ التاريخ أن ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة .

والذى يتدبر أخلاق هذين الرجلين — المنصور وأبى مسلم — يعرف

أنهما شخصيتان قدر لهما أن يتصادما ، فكلاهما أنانى إلى أقصى حدود الأنانية لا يطيق أن يرى إلى جانبه منافساً فى نفوذه أو قسيما له فى ملكه ، وكلاهما مكيافلى من فرعه إلى أخمصه ، لا يعرف معنى للعواطف النبيلة أو المبادئ السامية إذا وقفت حجر عثرة فى سبيل أغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الإسراف فى القتل على الشبهة ، والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ، والمنصور أول من قتل فى الإسلام على الملك عمه وابن أخيه ، وأظهر قسوة بالغة فى معاملته لأبناء عمه العلويين .

وكان أبو جعفر متبحراً فى دراسة الفقه الإسلامى ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير فى تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنته من أن يدرك فى سهولة أوجه الشبه بين الأشياء دون أن تغيب عنه اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته فى البحث والتقصى ، والصبر على الشك ، والتريث فى التفكير ، والاستعداد للمراجعة . وقد كانت حاسة النظام والترتيب فى نفسه أقوى من حاسة إدراك الجمال ، ولم يكن بطبيعته شديد الميل إلى النساء والتهالك على اللذات، ولم يكن غالياً فى التأنق، ولا شديد الولوع بالشعر، فإن أعجب بشىء منه فإنما يعجب بالجانب التعليمى فيه وبما قد يتضمنه من مأثور الحكم وناضج التجارب ، وما يمكنه أن يستخرج منه درساً سياسياً أو قاعدة عملية ، وكما زادته دراسة الفقه استقامة فى التفكير وأناة فى إصدار الأحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادته بعداً عن الإسراف فى الترف ، والانغماس فى اللهو .

وكانت نشأة أبى مسلم سياسيةً عملية خالصة . وقد جمع بين براعة السياسى ومهارة القائد . وكان ينظر إلى أبى جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفى الذى يضمره رجال العمل وأبطال الميادين للعلماء ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمى أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسة عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير مواهبه . ولذلك لم يتيسر لأبى مسلم تقدير أبى جعفر تقديراً دقيقاً ، ولم يستطع وهو فى ريعان نفوذه ، وعنفوان انتصاره ، أن يدرك أن هذا الرجل هو نابغة قومه ، وباقعة عصره . ورجل العمل والكفاح فى حاجة ماسة إلى أن يكون معلمه من طراز أرسطو معلم الإسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله إلى تأثير الحوادث فى المنصور وكيف أفاد تجربة وحنكة . ولقد عاش أبو جعفر فى الظل والخفاء وعاش فى الضوء الساطع ، وعلمته الإقامة فى ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المسماة الحميمة أن يطيل التفكير ويجيد وزن الأمور . وإذا كان الأنبياء المرسلون يخرجون إلى العالم من أعماق الوحدة والنواحى المهجورة فلا مانع من أن تكون تلك القرية الموحشة مدرسة للسياسيين الملهمين ، والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة والبصيرة ، ومن نظر إلى الحياة من أعاليها وأعماقها ، وذاق حلوها ومرها ، لا تزدهف لبه ابتسامات الملق ، ولا تطير به الوشايات والنمائم لأنه تعود مراجعة النفس وألف الحذر .

وأول ما وقع فى نفس أبى جعفر من أبى مسلم وكان له تأثير فى مستقبل

العلاقات بينهما هو ما كان من رسول أبي مسلم لما قدم على أبي العباس عند بدء ظهوره واستعلان أمره ، فقد دخل عليه الرسول لتبليغ تحية أبي مسلم وتقديم تهنئته ، وكان أبو العباس جالساً مع أبي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول : « أيكم ابن الحارثية ؟ » وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان أخوه أبو العباس أصغر منه سناً ، ولكن إبراهيم الإمام أوصى له بالخلافة وآثره بالأسبقية لأن أمه عربية حرة ، ولا نزاع في أن هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس أبي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى أنه أحق بالخلافة وأقدر على النهوض بأعبائها من أخيه اللين المستضعف وقد نكأت كلمة رسول أبي مسلم هذه القرحة في نفس أبي جعفر ، وهي في تقديره إهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد ألد العداوة .

أوفده بعد ذلك الخليفة أبو العباس إلى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو أخذ البيعة من أبي مسلم لأبي العباس ولأبي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار أحوال أبي مسلم وسبر غوره ، لأن خيانة أبي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة إلى العلويين عقب مجيء الأخبار بوفاة إبراهيم الإمام أثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يسترِيبون برجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من إخلاصهم . وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس أبي جعفر ، فقد رأى بعينه قوة نفوذ أبي مسلم ، ولمس عن قرب سعة سلطانه ، ومدى سطوته ، وتعلق أصحابه به وتفانيهم

obeikandi.com

فى طاعته . ويظهر أن أبا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية ، واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق فى أثناء وجود أبى جعفر هناك أن أبا مسلم اشتبه فى سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه إليه وقتله دون أن يستشير فى ذلك أبا جعفر أو يرجع إلى رأى الخليفة . فلما عاد أبو جعفر أفضى إلى أخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ أبى مسلم ، وزين له الخلاص منه ، ولكن أبا العباس كان يستعظم الإقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه ، وأرسله إلى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وأبلى أبو جعفر فى هذه المهمة بلاء حسناً حتى اضطر ابن هبيرة إلى طلب الأمان ، وجرت السفراء بينهما ، وجعل له أبو جعفر أماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن إليه ، ثم أنفذه إلى أبى جعفر ، فأنفذه إلى أبى العباس فأمره بامضائه . وكان من رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه ، ولكن أبا العباس استشار أبا مسلم ، وكانت فرصة لتوهين رأى أبى جعفر فأشار على أبى العباس بقتله لأن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض أبو جعفر فى ذلك معارضة شديدة ، فألح عليه أبو العباس حتى اضطر إلى تنفيذ أمره ، واستطاع أبو مسلم فى هذه المعركة أن يتغلب على أبى جعفر ، ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض مبرم العهود .

ووجه أبو العباس أبا جعفر فى عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينه وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه ، واستقام أهل

الجزيرة ، وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف فى خلالها كل منهما إلى معالجة شؤون ولايته و إخماد الفتن ورتق الفتوق . و بعد انقضاء أربعة أعوام عاد الخلاف بينهما على أشده ، وذلك لأن أبا مسلم كتب إلى الخليفة أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه للحج ، وكان مايرمى إليه من وراء ذلك هو أن يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك أبو العباس قصده ورأى فى ذلك ما يزيده علواً وتمكيناً . و بعد إعمال الفكرة للحيلولة دون ذلك كتب إلى أبى جعفر يستحثه على أن يستأذنه فى الحج حتى لا يطمع أبو مسلم فى تقدمه عليه ، ورحب أبو جعفر بهذه الفرصة التى عنت له لمراغمة خصمه ، فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم أبو مسلم بذلك اضطغنها على أبى جعفر .

وقدم أبو مسلم الأنبار فأمر الخليفة أبو العباس أن يتلقاه القواد وأعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمه و أكرمه ، وقدم أبو جعفر من الجزيرة ، واتفق فى أثناء وجودهما بالأنبار أن دخل أبو مسلم على أبى العباس وأبو جعفر حاضر ، فسلم على الخليفة أبى العباس ولم يسلم على أبى جعفر ، فاسترعى الخليفة التفاته إلى أبى جعفر فقال أبو مسلم « إنى قد رأيته ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى به أبو العباس الذى كان لا يرى كبير بأس فى بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد أبو جعفر يلح على أخيه فى ضرورة القضاء على أبى مسلم ، وأغراه باغتياله ، ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الإقدام على ذلك .

وسارا بعد ذلك فى طريقهما إلى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة ، استطاع أبو مسلم أن يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من أبى جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار ، وكسوة الأعراب ، وأغدق عليهم العطايا ، وتعهدهم بالطعام ، ولم يكن أبو جعفر بطبيعته ميالا إلى الجود ، واجتذاب القلوب ، وكان يؤثر على الدوام أن يكون مخشى الجانب مرهوب السطوة ، ولما صدرا من الحج ترامت إليهما الأنباء بوفاة الخليفة أبى العباس ، فدعا أبو جعفر الناس إلى البيعة ، وبايعه أبو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر أبو جعفر لأبى مسلم تخوفه من شر عمه عبد الله بن على وشيعته . ولما أخذ عمه البيعة لنفسه أشار أبو جعفر على أبى مسلم بالتوجه إلى قتاله لأن عامة جنده ومن معه من خراسان . وكان أبو مسلم يحاول جهده الإسراع فى العودة إلى خراسان ، ويؤثر أن يخلى ما بين أبى جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التى أبداها المنصور هى أن أمر عبد الله قليل الخطر ، وأن أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعى بقاءه هناك . ولكن أبا جعفر ألحّ عليه ، وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل أخيراً التوجه لإخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود ستة أشهر انتصرت فى نهايتها حركات أبى مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة . وفى خلال هذه المدة أتم أبو جعفر تدبير الخطة للقضاء على أبى مسلم . ولم يكن أبو جعفر يجهل حاجته إلى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبى مسلم ، والدولة فى طالعة أمرها ، والمتربصون بها كثيرون ،

والطامعون فيها لا يخلون من قوة و بأس ، وكان يعرف أن أبا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة ، وراسم الخطط المثمرة ، ولكنه وازن بعقله الحسّاب بين الضرر والمنفعة ، ولما قطع بالرأى لم يتردد فى العمل على تنفيذه لأن الرجل كان لا يعرف الهوادة ، ولا تغلبه العاطفة فى مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان أبو مسلم كلما سما مقامه ، وطغى نفوذه ، أصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منقذ بيته ، ورافع دعائم ملكه ، والحاجز المنيع ضد الثورات ، و إنما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع أن يفسد عليه أمره و يسلبه ملكه ، وكان المنصور قد حكم منذ زمن على أبى مسلم بالإعدام بينه و بين نفسه وهو حكم أنتجه التفكير الهادئ والمنطق الذى لا يرحم ، وزادته الأيام إيماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته .

وكان أبو مسلم خلال أداء تلك المهمة التى أناطها به المنصور — وقبلها مضطراً كارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع أن يقمع استخفافه به وموجدته عليه ، فكان يأتيه منه الكتاب فيقرؤه ثم يلوى شدقه و يرمى بالكتاب إلى صديقه الحميم أبى نصر — مالك بن الهيثم — فيقرؤه و يضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فأرسل إلى أبى أيوب المورياني وزير المنصور رسالة شفوية ضمنها ارتيابه بأبى مسلم .

وكان المنصور يحاول الآن — وقد انتوى إزاحة أبى مسلم من طريقه — ألا يبدو قتله فى صورة الغدر الأثيم والخيانة الصارخة . والوسيلة الوحيدة

لذلك هى أن يستفز إباءه ، ويثير غضبه حتى يخرج عن طوره ، ويجد المنصور إذ ذاك مسوغا لقتله أمام أتباعه . فلما انهزم عبد الله بن على وكتب أبو مسلم إلى المنصور بذلك أرسل المنصور رسولا من قبله لإحصاء الغنائم وتحصيل الأموال ، وكان يعلم مافى ذلك من الإساءة إلى أبى مسلم الذى تعود الاستمتاع بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليه الرسول وعلم بمهمته لم يستطع أن يكظم غضبه ، وبسط لسانه فى أبى جعفر وهمّ بقتل الرسول لولا تدخل أصحابه . فعاد الرسول إلى أبى جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده أن يحول بينه وبين خراسان ، فأرسل إليه رسولا آخر معه كتاب يخبره فيه بأنه قد ولاه مصر والشام وأنهما أحسن له من خراسان ، وأن يوجه إلى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة ، فلما جاءه هذا الكتاب عرف غرض أبى جعفر وغضب واعتزم المضى إلى خراسان ، وأقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف . والواقع أن أبا مسلم كان قد تعود السلطة وأن يقطع برأيه ويتصرف بحسب هواه ، وأن يأمر فيطاع ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورته ، ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع الآن أن يصانع ويتملق ، ويخطب الود ويلتمس الرضى ، وغير غريب أن يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الإنسان أن يصل إلى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله فى يسر وسهولة وعند أول إشارة . وقد تحول الأمر بأبى مسلم من عدم الاكتراث لأبى جعفر

إلى العناد والإصرار ، ومن العناد والإصرار إلى التحدى الظاهر ، والمخالفة الصريحة ، وقد زاده الانتصار الأخير اعتزازاً برأيه ، وإدلالاً بمكانته ، وشدة شعور بعظمة شخصيته . وكان المنصور من ناحية أخرى يريد النظام ، ويأبى الفوضى فى أية صورة من الصور ، ومثل هذا الرجل لا يطيق أن يرى مناظراً له فى سلطانه ، ولا يسمح بأن يعيش فى ظل ملكه الوريف معارض واحد هادىء البال مصون الدماء .

وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم فى المسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق حلوان : « إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسى »

ولما وصل هذا الكتاب إلى أبى جعفر كتب إلى أبى مسلم : « لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ؟ وليس مع

الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغانه و بينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » . واختار أبو جعفر من رجاله أبا حميد المروروزى ليحمل الكتاب إلى أبى مسلم ورسم له الخطة التى يسلكها بعد تقديم الكتاب ، وهى أن يبدأ فيكلم أبا مسلم بألين كلام ، ويلوح له بالوعود ويمنيه الأمانى ، ويستفرغ فى ذلك جهده ، ويحذره عاقبة البغى ، فإن أصر على المخالفة ، وصرح بالعصيان ويئس منه يبلغه هذه الرسالة الشفوية وهى إن أمير المؤمنين يقول له « لست للعباس وأنا برىء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتنى إن وكلت أمرك إلى أحد سواى و إن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك » وأوصى المنصور من حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم يعظمون أمره ، ويشكرون ما كان منه ، ويحذرونه عاقبة الغدر و يأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين وأن يلتمس رضاه .

***

وسار أبو حميد فى جماعة من أصحابه ممن يثق بهم حتى قدموا على أبى مسلم بحلوان ، فدخل أبو حميد ومعه أصحابه ودفع الكتاب إلى أبى مسلم ، وقال له : إن الناس يبلغونه عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيه فيه حسداً و بغياً يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، ونصح له ألا

يفسد ما كان منه ، فكبر هذا الكلام على أبي مسلم لأن أذنه لم تتعود سماع النصائح ، فالتفت إلى أبي حميد وقال له فى كبرياء وأنفة : « متى كنت تكلمنى بمثل هذا الكلام ؟» فقال له أبو حميد : « لقد دعوتنا إلى طاعتهم أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه و إن خالفتكم فاقتلونى ؟ »

وكان إلى جانب أبي مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليه وقال : « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامه يا مالك ! »

فقال له مالك : « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منه ، ولعمرى لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع . فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك بعده أبداً . »

وأراد أبو مسلم أن يخلو بنفسه فصرف القوم وأخذ يفكر و يقلب الأمر على وجوهه ، ولما أتعبه التفكير استدعى نيزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . ولما أقبل نحوه نيزك التفت إليه أبو مسلم وهو يحاول أن يتكلف الابتسام ، و يخفى اضطراب خواطره ، و يتظاهر بقلة الاهتمام وقال له : « يا نيزك إنى والله ما رأيت طويلا أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقال القوم ما قالوا ؟ » فقال له نيزك : « لا أرى أن تأتيه وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والرى لك وهم جندك ما يخالفك أحد ، فإن استقام لك استقمت له و إن أبى كنت فى جندك ، وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك »

واطمأن أبو مسلم إلى هذا الرأى ، وعول على الأخذ به ، ودعا أبا حميد وقال له : « إرجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه »

فقال له أبو حميد : « أو قد عزمت على خلافه ؟ »

فقال له أبو مسلم : « نعم »

فقال له أبو حميد : « لا تفعل »

فقال أبو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الإصرار : « ما أريد أن ألقاه » .

* * *

وهنا لم يجد أبو حميد بداً من أن يبلغه رسالة أبي جعفر الشفوية . فلما سمعها أبو مسلم وجم طويلا ، وأخذت تتكشف له طبيعة الرجل الذى يريد مخالفته ، وكأنما رفع عن بصره الغطاء فى تلك اللحظة ، وأدرك أنه أفرط فى تحدى خليفته ، وكان أبومسلم يعلم جيد العلم أن سلطان أبي جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما ، وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول أبومسلم من قبل أن ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه أنه من ولد سليط الذى كان ينسبه الأمويون إلى عبد الله بن العباس نكاية فى أولاده ، وبمحاولته مرة أخرى أن يخطب إلى المنصور عمته أمينة بنت على . وراءه هـذا التهديد المكشوف الذى يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر . وكان أبو جعفر عندما حاول استفزاز أبى مسلم قد احتاط للأمر وأخذ يحرك المنافسة والحسد فى قلوب

مناظرى أبى مسلم وحاسديه ، فكتب إلى أبى داود خليفة أبى مسلم على خراسان يوليه أمر خراسان مابقى ، فكتب أبو داود إلى أبى مسلم من رسالة « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . ووافاه الكتاب وهو فى تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده هما ورعبا ، وهنا ارتبكت أعصاب الرجل وتحللت عزيمته ، فاستدعى رسول أبى جعفر وصديقه مالكا وقال لهما : « إنى قد كنت معتزما المضى إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحق إلى أمير المؤمنين فيأتينى برأيه فإنه ممن أثق به » ولما قدم رسول أبى مسلم على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له المنصور : « اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان » وأجازه فرجع أبو إسحق إلى أبى مسلم وقال له : إنه لم يجد من القوم ما ينكره وإنهم معظمون لحقه . وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان . وكان أبو جعفر قد نجح فى أن يهز ثقة الرجل بنفسه ، وأن يعطل قوة رأيه القاطع ، فأجمع على العودة إلى الخليفة لأنه لم يجد بداً من ذلك ، وحاول نيزك أن يثنيه عن الرجوع ، ولكن أبا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك تمثل أبو مسلم قائلا :

ما للرجال مع القضاء محالة　　　ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن إقناعه ورده عن عزمه : «أما وقد عزمت على

هذا فاحفظ عنى واحدة ، إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع لمن شئت فإن الناس لا يخالفونك »

وكتب أبو مسلم إلى أبى جعفر يخبره أنه منصرف إليه ، ولما طوى أكثر الطريق تلقاه رجل من قواده ، وحذره ، ونصح له بالعودة ، فاشتدت مخاوفه ، وكثرت هواجسه ، وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ، ولكن الشبكة المحكمة لم تمكنه من الإفلات . وأحس الرجل بشدة وطأتها وعجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذى لا تنفد حيله يدس عليه رجالا ليبلغوه ما ينفى عنه الوساوس و يوحى إليه الطمأنينة ، ولما شارف المدائن أمر المنصور الناس فتلقوه ، واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء وأعيان العباسيين . ولما دخل المدائن كان النهار قد أدبر وأرخى الليل سدوله ، وجلس أبوجعفر ينتظر قدومه وقد حفه صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل أبو مسلم على المنصور وسلم ، والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع وكان أحدهما وهو المنصور أسمر اللون رقيق السمرة ، طويلا نحيفاً خفيف العارضين عليه أبهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو أبو مسلم — قصيراً أسمر أحور العين عريض الجبهة ، وافر اللحية ، ساهم الوجه ، شارد الفكر ، يحاول جهده أن يتماسك و يتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور مايعانيه أبومسلم من الاضطراب الخفى فتلطف معه ، وترفق به ، واحتفى بمقدمه ، وتهللت فى وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التى يتخذها الساسة قناعا يسترون به مبهم النيات ، وخفى الأغراض . ولم يطل قيام

أبي مسلم ، فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنه غبار السفر و يرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما فى خلال تلك اللحظات القصار التى قضياها معاً أن يتغلغل بنظراته الحادة إلى سريرة صاحبه ، وخرج أبومسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر فى تلك الليلة بما حفلت به المدائن من أصوات البشائر ، و بما أقيم لقواده ورجال حاشيته من الولائم والحفلات ، وآوى إلى فراشه مبكراً ، ونستطيع أن نتصور أبا مسلم فى تلك الليلة متململا فوق فراشه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة و التكريم التى قو بل بها أن تبدد مخاوفه وتنفى عنه الأفكار السود ، وأخذت كلمات التحذير التى قالها له صديقه أبو نصر وصاحبه نيزك تدوى فى أذنه دويا متصلا ، وترن رنيناً محزناً ، ولعله أخذ يعجب من نفسه وكيف جاء إلى المدائن وسعى إلى حتفه ، وكيف خذلته شجاعته والتوى عليه الرأى وهو الجندى الباسل والسياسى الخطير . وكان يشعر بعزلته وأنه وحيد فى عالم غريب ، وأن الخطر الذى يهدد حياته قد صار على كثب منه . ولما مضى الهزيع الأول من الليل هدأت الحركة فى المدائن ، وهمدت الأصوات ، وران الكرى على الجفون ، ولكن بقى رجلان ساهرين ، أحدهما أبومسلم الذى كان يفكر فى مصيره وما تخبئه له الأقدار ، ويخشى أن يغدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد أخذ يلوم نفسه لأنه لم يهتبل الفرصة ويقتل أبا مسلم عند ما ملأ عينيه منه ، ويريح نفسه ويشفى غلته ، وصار يستطيل الليل و يرقب تباشير الصباح فى قلق وحذر .

ولما أقبل الصباح استدعى المنصور أربعة من رجال حرسه الأشداء، وعرفهم بالمهمة الموكولة إليهم، ففهموا الأمر، ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة، وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وأن يبرزوا إذا ارتفع صوته وصفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم.

وأصبح أبو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من أرق وتسهيد، وما ساوره من أفكار وهموم، وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن أخي المنصور صداقة ومودة، فأتى منزله وتناول عنده الغداء، وفي خلال الحديث أنشد عيسى:

سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت … وما حل في أكناف عاد وجرهم

ومن كان أنأى منك عزاً ومفخراً … وأنهد بالجيش اللهام العرمرم

فالتفت إليه أبو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له: «هذا مع الأمان الذي أعطيت؟» فقال له عيسى: «أعتق ما أملك إن كان هذا الشيء من أمرك وما هو إلا خاطر أبداه لساني» فقال أبو مسلم: «فبئس الخاطر والله إذن». وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه إلى الحضور، فقال له عيسى: «لا تعجل بالدخول حتى أحضر وأدخل معك». فأبطأ عيسى بالوضوء، ومضى أبو مسلم، فلما هم بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه، فدهش لذلك، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا إليه ما صنع به فطيب

obeikandl.com

المنصور خاطره ، وأقبل بعد ذلك عليه يعاتبه ، ويحصى عليه ذنوبه ، وينعى عليه زلاته ، وشدد النكير على سلوكه نحوه ، وكيف كان يتقدمه فى طريق الحج ، وكيف كان يكتب إليه فيبدأ بنفسه ، وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائه فى دعوتهم ، وكان أبو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما أكثر عليه المنصور أخذته العزة فقال له : « لا يقال لى هذا بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى » . فغضب المنصور وقال له : « لو كانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، إنما عملت ما عملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا » وسبه بعد ذلك وذكره كيف تطاول إلى خطبة عمته وادعى أنه من ولد سليط ، وغلت مراجل المنصور ، وانفتقت فى نفسه شهوة الانتقام ، ولاحت فى عينه بوارق الغضب والحقد ولوائح الغدر ، وأدرك أبو مسلم خطورة الموقف فأخذ يعرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديه فبرزت الرجال بالسيوف ، ولم تزد أول ضربة على أن قطعت حمائل سيفه فقال : « يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك » فقال له المنصور : « لا أبقانى الله إذن وأى عدو أعدى لى منك » وصاح برجاله : « اضربوا قطع الله أيديكم » ولما توالت على أبى مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته ، وانطوى إباؤه ، وارتجف من الموت هذا الرجل الذى أذاق الألوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو فى ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له : « العفو وقد اعتورتك السيوف »

ووقف المنصور أمام فريسته كالوحش الضارى ينشد :

زعمت أن الدين لا يقتضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها ... أمر فى الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى ، وسأل عن أبى مسلم فقال له المنصور : « ها هو ذاك فى البساط » فأبدى عيسى أسفه وتفجعه ، وذكر إخلاص أبى مسلم وطاعته فقال له المنصور : « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ » وأمر المنصور فحملت بقايا أبى مسلم ورمى بها فى دجلة ، وبعث إلى عدة من قواده بجوائز سنية وأعطى جميع جنده حتى رضوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون : « لقد باعنا مولانا بالدراهم »

ومرت على هذه الحادثة أعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم « ثلاثة كن فى صدرى شفى الله منها ، كتاب أبى مسلم إلى وأنا خليفة الذى قال فيه « عافانا الله وإياك من السوء » ، ودخول رسوله علينا وقوله « أيكم ابن الحارثية » ، وضرب سليمان بن حبيب ظهرى بالسياط »

* * *

وطوى عصر المنصور ، ودارت الأيام دورتها ، وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة أحد أحفاده وهو عبد الله المأمون ، وجلس ذات ليلة يسمر مع رجال حاشيته ، ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم

obeikandl.com

« أجل ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الإسكندر المقدونى ، وأردشير ، وأبو مسلم الخراسانى » !

وقد كان قتل أبى مسلم ضرورة سياسية ، ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسى ، واستفحال أمره ، وأعادها بعده الرشيد بإيقاعه بالبرامكة ، وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل . ولكنهم لم يوفقوا فى تلك المحاولة العنيفة التوفيق كله لأن تغيير مجرى الحوادث فى كثير من الأحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون .

obeikandl.com